

## تعمير الكعبة ومراسمه

إعادة بناء الكعبة سنة ١٠٣٩هـ. ق.

من كتاب مرآة الحرمين لأَيُّوب صبري باشا

إعداد: السيد علي قاضي عسكر

### المقدمة

المؤرخون في نقل أدق التفاصيل عن هذه الحوادث المؤسفة وبمحتدقائق أمورها.

في حج العام الماضي (١٤١٦هـ)، وبعد انتهاء مراسم الحج الشريفة، بادرت الحكومة السعودية، ودون انذار مُسبق بنصب السقالة وأحاطت الكعبة الشريفة بجدار خشبي مرتفع ضمّ خلاله الكعبة وحجر إسماعيل عليه السلام إلا الحجر الأسود الذي بقي خارج

تعدّ الكعبة المشرفة من أجمل أماكن الحرمين الشريفين وأكثرها جاذبية وقُدسية. وهي في تراثنا الديني قبلة المسلمين في كلّ أقطار الدنيا، وقد ورد في الأخبار أنّ مجرّد النظر إليها يكيل للناظر ثواباً جزيلاً.

لقد مرّت على البيت العتيق عبرَ مختلف مراحل التاريخ حوادث تعرّضت جدران الكعبة خلالها إلى الانهيار في بعض الأحيان. وقد أسهب

إسماعيل عليه السلام. هذا وقد تمّ البناء في شهر رجب من عام ١٤١٧هـ ومن جانب آخر فقد وصلت إليّ نسخة مخطوطة باسم مرآة الحرمين تأليف أيوب صبري باشا، وبعد الإلقاء نظرة على تلك المخطوطة تبين لي أنّ المؤلف تطرّق فيها إلى تاريخ التعميرات والترميمات التي أجريت على الكعبة الشريفة، حيث يعرض أوجه الشبه بين أساليب التعمير والبناء في الماضي وما هي عليه في وقتنا الحاضر. ومن جملة ما ذكر، أنّ فيضاً عظيماً حدث في زمن الشريف مسعود والي مكة تسبّب في تهدّم جزء من جدار الكعبة الشريفة، فأوفدت الدولة العثمانية في حينها مبعوثاً لها يدعى «رضوان آقا» للنظر بما يمكن القيام به من أجل إعادة بناء تلك الجدران وتعميرها. وبالفعل فقد أقيم جدارٌ خشبي حول الكعبة المشرفة واستؤنف البناء في الحال. ويستطرد صبري باشا قائلاً: لقد حذا مبعوث الدولة العثمانية لهذا العمل حدّ عبد الله بن الزبير، بمعنى أنّ مبعوث الدولة كان قد اتّبع الخطوات نفسها التي اتّبعها عبد الله ابن الزبير، واستخدم الأساليب نفسها.

الجدار الخشبي، مثيرةً بهذا العمل تساؤلات شتى، وتاركة المعتمرين في حيرة من أمرهم وألم شديد، ذلك أنّهم ما تحمّلوا كلّ تلك المشاق إلا من أجل التشرّف بالنظر إلى بيت الله الحرام والتمتّع بكلّ ركنٍ وجانبٍ منه. وقد أورد بعض المعتمرين -ممن أتيحت له الفرصة ودخل الجدار الخشبي إلى داخل الكعبة من خلال باب في الجدار- أنّ الحكومة السعودية أزالّت السقف الخشبي للكعبة المشرفة، وأقامت بالفعل عدّة أعمدة خرسانية، وغطّت أرضية الكعبة كذلك بالاسمنت، وساوته ببوابة البيت العتيق. ولكي تبقى الباب بمنأى عن أيّ ضرر أو تلف (حسب ادعاء المسؤولين السعوديين) فقد خلعت الباب من مكانها، ووُضعت في زاوية بعيدة عن متناول الأيدي. ثمّ بنت الحكومة المذكورة سقفاً جديداً على الأعمدة الخرسانية التي نصبها آنفاً، في حين بقي الحائط الخارجي للكعبة من دون أن يطرأ عليه أدنى تغيير. وطالت تعميرات الشاذروان وهو القاعدة السفلية المحيطة بالبيت الشريف، واستُبدلت الأحجار المحيطة بحجر

ومن هنا فقد عقدتُ العزم على نشر هذه المعلومات والأخبار التاريخية القيّمة، ووضعها في متناول أيدي قراء مجلّة مِيقَاتِ الْحَجِّ الأعزّاء، وأبداها بإعطاء نبذة ولو مختصرة عن الكتاب ومؤلفه ومترجمه:

وُلِدَ أيُّوب صبري باشا بن السيد شريف الإسلام بن الحاج أحمد في مدينة (أرمية) إحدى توابع (روم إيلي)<sup>(١)</sup> أو (تساليا) من توابع بني شهر التركية.

وقد استهلَّ حياته الإجتماعية والوظيفية بالالتحاق بدار صناعة الأسلحة في القوّة البحرية التركية، واعتلى مناصب كثيرة بسرعة حتى وصل إلى منصب قائد، ثمّ أوفد إلى الحجاز بما يتناسب ومنصبه الجديد، وقضى فترة لا بأس بها في مكّة والمدينة المنورة، فكانت نتيجة ذلك أن تعرّف على مجمل تاريخ هذه المنطقة. ومع أن تاريخ وصول صبري باشا إلى الحجاز لم يُعرف بالتحديد، إلّا أنه ذكر في مؤلّفه (مرآة الحرمين) ما يلي<sup>(٢)</sup>:

«تشرّف الحقيّر مؤلف الكتاب بالوصول إلى مكّة المكرمة في أواسط شهر شعبان سنة ١٢٨٩هـ. ق.»<sup>(٣)</sup>.

وقد سجّل صبري باشا في خلال رحلته تلك الكثير من المعلومات والمذكرات وكان أحياناً كثيرة يقوم بالبحث والتقصّي شخصياً، فألّف بعد ذلك كتابه المعروف بـ(مرآة الحرمين). وإذا ما اعتبرنا سنة (١٢٨٩هـ) هي السنة التي قام فيها صبري باشا بالسفر لأول مرة إلى الحجاز وعلمنا أن سنة (١٢٩٩) كانت السنة التي ألّف فيها المذكور كتابه (مرآة الحرمين) لاستنتجنا أن هذا الكتاب القيم استغرق حوالي عشر سنوات للظهور بمظهره ذلك<sup>(٤)</sup>.

وقد ألّف الكتاب المذكور في ثلاثة أجزاء، يضمُّ الجزء الأول كتاب (مرآة مكّة)، والجزء الثاني (مرآة المدينة) وأمّا الجزء الثالث فيدعى بـ(مرآة الجزيرة العرب)، وطُبعت الأجزاء الثلاثة على التوالي سنة (١٣٠١) و(١٣٠٤) و(١٣٠٦) في مطبعة (سنده) بالقسطنطينية - اسطنبول - بتركية باللغة التركية الاسطنبولية.

ويصف أيُّوب صبري باشا الهدف من تأليفه كتاب (مرآة الحرمين) قائلاً: «حيث إنّه لم يُؤلّف لحدّ الآن



الأولى والثانية بنقوش ذهبية ولاجوردية وخضراء، واحتوت صفحاته الخمس الأولى على تذهيب ما بين السطور، وكُتبت عناوين صفحاته بالحرر الأحمر محاطة بإطار أسود اللون مُطعم باللونين الأزرق والأحمر كذلك، ثم أحيط الإطار المذكور بإطار خارجي حوله أيضاً<sup>(٥)</sup>. وقد اعتمد صبري باشا في تأليفه الكتاب المذكور على عدّة مصادر، أهمّها: أخبار مكة للأزرقي، أخبار مكة للفاكهي، التفسير الكبير للفيروز الرازي، وتفسير روح البيان، وتفسير أبي السعود، تفسير ابن كثير... وصحيح البخاري، وفتاوى قاضي خان، وخلاصة الوفاء بأخبار مدينة المصطفى، ووفاء الوفا، وتاريخ الخميس، وتاريخ ابن هشام، والعقد الثمين في فضائل البلد الأمين، وبدائع الزهور في وقائع الدهور، وشفاء الغرام، ونور العين في مشهد الحسين، وقرة العين في أخذ ثأر الحسين والأحكام السلطانية للماوردي، فذلّة الكتاب للجلبي، تدقيقات وتحقيقات الدكتور رائف أفندي، فضائل بيت الله، ذراع الكعبة المشرفة، مضبطة سهيلي أفندي، فتوح

كتاب مستقلّ باللغة التركية حول ذلك، وحيث إن الروايات التي تداولتها ألسن وأفواه العامّة، كانت مختلفة ومتضادّة؛ لهذا فإنّ الوصول إلى الحقيقة المطلوبة كان في غاية الصعوبة، ممّا أدّى إلى عدم اطلاع أبناء البلد بشكل مطلوب على فوائد وفضائل هاتين البلديتين الطيّبتين، وصعوبة الحصول على المعلومات المطلوبة على حدّ سواء... لذا فقد عزم العاجز الفاني على توفير تلك المعلومات، ووضعها في متناول أيدي الخاصّة والعامّة من الناس نظراً لإحساسي بفوائدها الجمة ومنزلتها العالية التي لا يمكن وصفها أو إيجاد نظير لها». وقد أُلّف كتاب مرآة الحرمين باللغة التركية في مجلدين اثنين، وهو يتحدّث بالتفصيل عن الجغرافية العامّة لمكة والمدينة المنورة؛ تأسّس هاتين المدينتين، الأبنية الإسلامية والتاريخية الموجودة فيها، الحوادث والمناسبات التي طرأت على الحرمين الشريفين على مرّ التاريخ، الفتنة الوهابية وغير ذلك. وقد احتوى المجلد الأوّل على (٤٣٤) صفحة بينما احتوى المجلد الثاني من الكتاب على (٢٩٤) صفحة حيث زُيّنت صفحاته

وهتف هاتف التهليل، بسبل سبيل  
السلسبيل وخل الدخيل، وواصل  
الأصيل، فافتست فرصة التفرس،  
واسترقت ساعة التجسس، فإذا  
بذوات الذوابل، ومنهومات النهى  
وناعمات الأنامل، يحتجن المحاسن  
حياء، ويتوارين من أنوار المرأة الوراء،  
فراعتني براعتها، وبهرتني براعتها  
وقلت إن هذه:

تمثال أجيال مضت وسراة  
حلّت محل الحال بعد فوات...  
قم صاح واستطلع صباحاً رائقاً  
واعجب من المرققات في المرأة  
مرآة نور الله زينها التقى  
تحكي حمى الفردوس في نغمات  
أهدى بها الأيام «أيوب» فما  
تنفك تشكر منه فيض هبات...  
والعلم يشهد أنه بحر له  
برجل عوائد وصلات...  
أحيى لنا الأعيان في آثاره  
ولتلك أكبر حكمة وثبات...  
فلقد أقر عيون كل ذوي الحجا  
ما بين ماض في الزمان وآت

الحرمين، تاريخ نوح أفندي، روضة  
الصفاء لمحمد خاوند شاه، التواريخ  
التركية، وغيرها.

وكتب أيوب صبري باشا هذا  
الكتاب باللغة التركية واستفاد من  
الحكايات والأشعار التركية والعربية  
والفارسية.

وقد أتى عليه البعض كعاقب بن  
غيث البلادي في كتابه: نشر الرياحين  
في تاريخ البلد الأمين في الجزء الأول،  
الصفحة ٨٦. ومحمد طاهر الكردي  
صاحب كتاب التاريخ القويم، حيث  
قال: «والحق يقال، إنه كتاب فريد في  
بابه، وحيد من نوعه... وإنه لكتاب  
مشحون بالفوائد والمعلومات التاريخية  
الوثيقة وحبذا لو ترجم هذا الكتاب  
إلى اللغة العربية ثم يطبع وينشر لأنه  
كتاب خاص بتاريخ الحرمين فقط».

وقد كتب الأديب الكبير «نجيب  
نادر أفندي» تقریظاً جميلاً لكتاب مرآة  
الحرمين: «طالما طالعت أطايب  
المطولات، وتفردت في أفخر  
المفصلات، قصد الوصول لا صدق  
التفاصيل، متوقياً الوقوع بسقطات  
الأقاويل، حتى حان الحين وحلّت  
الحان، ورق يراع مرآة الحرمين الرئان،

على هيئة قطعة منثورة نثراً جميلاً  
ومسبوكة سبكاً دقيقاً.

وتصدى محمد القزويني المعروف  
بالآشوري العاشر لنسخ الكتاب  
بالخط نستعليق وتذهيبه بدقّة مزينة  
بالأشكال الجميلة وذلك سنة  
(١٣٠٨هـ) أي قبل ما يزيد على مئة  
عام.

وكما ذكرنا آنفاً فإن لصبري باشا  
مؤلفات عدّة، أهمها:

١ - تأريخ الوهابيين: باللغة  
التركية وقد تمّ طبعه من قبل  
«منشورات بدر» سنة (١٩٩٢)  
باسطنبول.

٢ - تكملة المناسك.

٣ - ترجمة الشمائل.

٤ - عزيز الآثار.

٥ - رياض الموقنين.

٦ - محمود السير.

\*\*\*

وغدا له الحر (النقيب) مؤرخاً  
«قد حصل الحرمين في مرآت»<sup>(٦)</sup>  
هذا وإن صبري باشا بعد عودته  
من الحجاز حاز منصب رئاسة  
المحاسبات في القوة البحرية التركية  
وبعد أن حصل على رتبة لواء وهي من  
الرتب العسكرية بدأ بالتدريس في  
الكلية البحرية التي تُسمّى «شاهانية»  
في إسطنبول.

وأخيراً توفي صبري أيوب باشا  
في ١٥ من شهر صفر ١٣٠٨هـ الموافق  
٣٠ أيلول ١٨٩٠ الميلادي في  
إسطنبول ودفن في مقبرة قاسم باشا.  
وقد صمّم وزير الانطباعات<sup>(٧)</sup>

أيام حكومة ناصر الدين شاه على  
ترجمة الكتاب المذكور فأعطاه عبد  
الرسول المنشئي (السكرتير) وكان  
مترجم البلاط آنذاك، وفعلاً تمّت ترجمته  
في سنة (١٣٠٧هـ) في دار الترجمة  
المعروفة بـ(همايوني)، فخرج الكتاب

يُعدُّ السلطان مراد خان رابع بن السلطان أحمد خان أحد السلاطين العثمانيين الباني الحادي عشر لبيت الله الحرام، حيث لم يجرِ شرعاً<sup>(٨)</sup> تجديد بناء البقعة المقدّسة أو طرف منها إلا بعد إنهدامها وسقوطها، ولذا فلم يجرّأ أحد على تجديد أو تعميم البقعة المقدّسة المباركة منذ أيام الحجاج الظالم، وحتى زمن السلطان المشار إليه آنفاً، حتى استوجب تعميم تلك البقعة المقدّسة بعد أن اندرست أركانها الأربعة وآلت إلى السقوط، ممّا حدى بالمسؤولين إلى تعميمها<sup>(٩)</sup>. وبالنظر إلى المسألة المذكورة لم يتمكن السلاطين سابقاً من تعميم أو تجديد تلك البقعة الشريفة، حتّى وصل حالها في أيام السلطان أحمد خان إلى وضع حرج وكادت أن تهتدم كلياً، مع أنّ السلطان أحمد خان كان ينوي قبل ذلك تجديد الأبنية الرخوة من البيت الحرام، ولكن لعدم حصوله على مجوّز يسوّغ له ذلك العمل، فقد تمّ تقوية البيت بالأحزمة والمفاصل الحديدية، وتمّ تعميم وترميم أحد الأركان الأربعة على قدر ما أمكن ذلك.

وبالرغم من أنّ الترميمات المذكورة ساعدت على صيانة البيت المعظم إلى ما يقارب ثماني عشرة سنة ومنعته من الانهدام والسقوط، إلا أنّ الأمطار الغزيرة - التي رافقها الرعد والبرق والصواعق - سالت مياهها من الجبال المحيطة بالبقعة المقدّسة، وتجمّعت مكونة سيلاً أكسبل العرم<sup>(١٠)</sup> فهجم السيل المذكور من أطراف الحرم الأربعة ودخل المسجد الحرام، وكانت شدّته تزداد ساعة بعد أخرى، وارتفع مقدار ذراعين بمحاذاة مفتاح باب الكعبة الشريفة. وقد تهتّمت المتاجر والبيوت التي كانت في طريق مسير السيل المذكور، ولم تستطع جدرانها من مقاومة قوّة السيل واندفاعه فجرفتها مياه السيل دافعة إيّاها داخل الحرم الشريف، وأحاطت به من كلّ جانب. ولا توجد إحصائية دقيقة حول عدد الأفراد الذين قُتلوا من جرّاء السيل والذين كانوا في تلك المتاجر والبيوت.



ولما كانت حيطان البيت المعظم عرضة للانهدام والسقوط فقد سقط فعلاً في اليوم الثاني من دخول السيل إلى الحرم الشريف (والمصادف لليوم الحادي عشر من شعبان) سقط الركن الشامي والعراقي دفعة واحدة وذلك بعد صلاة العصر من ذلك اليوم. وقد رافق ذلك السقوط والهدم صوت الرعد والبرق مما أحدث صوتاً رهيباً أثار في نفوس أهالي مكة الخوف والهلع مما حدى ببعضهم إلى مغادرة منازلهم، وترك وسائلهم داخل تلك البيوت. وقد أثار ذلك الانهدام والسقوط دهشة المكّيين وحيرتهم حتى ان البعض منهم وصف صورة ذلك اليوم وما حصل فيه بأنها علامة من علامات يوم القيامة.

هذا وقد هامت النساء والرجال على وجوههم، ولم يعرفوا أيّ بلاء نزل بهم! فافتقرت الأم عن ولدها ولم تسأل عنه، وانفصل الابن عن أمه وأبيه ولم يبادر أحد أن يجد من فقد، أو يتعقبه. وقد ظلّت المياه داخل الحرم الشريف مدة ثلاثة أيام بعد انقطاع السيل، وتمّ في اليوم الرابع خروج الماء من داخل الحرم إلى خارجه وذلك بعد انفتاح ممرّ السيل (المسيل). سالكاً الطرق التي سلكها السيل من قبل بينما ظلّت الأحجار والأتربة التي كان السيل قد أتى بها داخل الحرم بارتفاع قامه انسان مكوّنة تلالاً صغيرة تُذكر بما حدث.

وقد عقد الشريف مسعود بن إدريس (أمير مكة آنئذ) مجلس استشارة داخل الحرم الشريف ضمّ جمهور الأشراف وسكان بلد الله الحرام، فانترعت قناديل الذهب والفضة، التي كانت معلقة داخل الحرم الشريف. وكتب محمّد باشا والي مصر تفاصيل الحادثة وسقوط بيت الله الحرام وأرسلها إلى السلطان. ولما كان وصول تلك المعلومات إلى دار الخلافة في اسطنبول وإيصالها إلى البلاط العثماني يكلف وقتاً طويلاً، وحيث إنّه لم يكن من اللائق ترك الكعبة المشرفة على حالها تلك، فقد كتب (محمّد باشا) إلى مصطفى آقا (أمين جدة في ذلك الوقت)



يأمره بتحضير الآلات والأدوات اللازمة فوراً لتعمير بيت الله الحرام، وكتب في الوقت نفسه إلى الشريف بن مسعود يأمره بتطهير البيت الحرام من الحجارة والطين إلى حين وصول خبر من اسطنبول وأن يطلب من مصطفى آقا كل ما يلزمه أو يحتاجه لعمل ذلك.

وقد هياً الشريف مسعود بمساعدة مصطفى آقا وعلي بن شمس الدين أفندي (مهندس مكة المشرفة) الأخشاب اللازمة من جدة، وأحكم بواسطتها حيطان البيت المعظم، التي لم تهدم بعد ودعم أطرافه الثلاثة بالسقالة اللازمة. ولغرض حفظ السقف الشريف والحيلولة دون سقوطه، أقيمت أعمدة من الخشب القوي عن أطرافه الأربعة ثم رُبطت تلك الأخشاب بعضها مع بعض وقد غطت تلك الأخشاب والألواح بيت العزة إلى سقفه.

وقد شرع في تلك الأعمال يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر رمضان المبارك، وانتهت في الثالث عشر من شهر شوال، حيث استمرت أربعة عشر يوماً، وتم أكساء بيت الله الحرام بالدنيم الأخضر، الذي كان قد هبى من قبل في المدة التي تم فيها التعمير، وذلك في السابع عشر من شهر شوال. وقد كان تأثير انهدام بيت الله الحرام كبيراً على المسلمين في الأقطار الإسلامية كافة، وقد سيطر عليهم الحزن والألم، خاصة المصريين لقرب المسافة بين بلدهم والبلد الحرام. وبما أن موسم الحج كان قريباً، ولم يكن الجواب ورد بعد من اسطنبول مما هز مشاعرهم وأثر في نفوسهم أيما تأثير، مما حدثى بمحمد باشا والي مصر إلى احضار رضوان آقا (أحد المقربين للحرم الخاص بالسلطان) وأعطاه خلعة وأوكل إليه أمانة أبنية بيت الله الحرام حتى وصول الأمر السلطاني من اسطنبول؛ لأن موسم الحج كان قد قرب، وأمره بالسفر إلى مكة المكرمة فوراً، وتحضير وتهيئة كل المستلزمات الضرورية للتعمير، وأخبره بلزوم طلب ما يحتاجونه



هناك من مصر والكتابة إليه حول ذلك.

هذا وقد بعث محمّد باشا خلعة أيضاً إلى الشريف مسعود وبرسالة توصية، وأوفد رضوان آقا إلى مكّة المكرّمة.

فلما نزل رضوان آقا في إحدى المحلّات القريبة من مكّة، أرسل رسولا إلى الشريف مسعود وأعلمه بكلّ ما يتعلّق بأمور بيته، والخلعة التي معه فأوفد الشريف كذلك أعيان البلاد وأشرفها لاستقبال رضوان آقا. ثمّ انتقل رضوان آقا إلى مكّة بعد أربعة أيام من لقائه بالمبعوثين من مكّة (أي في السادس والعشرين من شوال) ووصل إلى الكعبة المشرفة، وأقام في المنزل الذي كان الشريف مسعود هيّأه له من قبل. واجتمع في اليوم التالي (٢٧ من الشهر المذكور) كلّ الأهل في الحرم الطاهر وذلك لمشاهدة مراسم إكساء الكعبة الشريفة. وقد أتبع الشريف مسعود ورضوان آقا والعلماء وكلّ أعيان المملكة والقوات الحكومية الأصول والتشريعات الخاصّة بتلك الشعيرة الشريفة، ووقف الجميع عند باب كعبة الله ومقام إبراهيم، وتمّ تلاوة الأوامر العالية المكتوبة، التي نصّت على إبقاء أصحاب المناصب في الحجاز على ما هم عليه، واحتوت الكتب كذلك على أوامر أخرى. ثمّ تمّ إهداء الخلعة الفاخرة التي أرسلها والي مصر إلى الشريف مسعود الذي أهدى من جانبه خلعا فاخرة إلى رضوان آقا، وإلى الوفد الذي كان يرافقه حسب درجتهم ومنزلتهم. ثمّ شرع المجتمعون بتلاوة الأدعية الخاصّة بهذه المراسم تجلّت من خلالها عظمة الإسلام وعزّته، ثمّ تفرّق الجمع بعد ذلك.

وبعد مرور ثلاثة أيام على وصوله إلى مكّة المكرّمة، دعا رضوان آقا إلى تجمّع في داخل الحرم الطاهر يضمّ الشريف مسعود وأعيان المملكة وذلك للنظر في أمر الأحجار والطين والغرين الذي تجمّع داخل الحرم الشريف، ومداخل المحل المقدّس بسبب السيل الذي حصل من قبل، ثمّ تشاور المجتمعون حول كيفية

تطهير وتنظيف تلك الأماكن، فأبدى الحضور آراءهم حول ذلك، وتلخّصت في أنّه من العسير القيام بتطهير وتنظيف الحرم الشريف في مدّة قصيرة. ولأنّ الوقت كان يقترب من موسم الحج، وكانت القوافل تتوافد على مكّة المكرّمة من شتّى الأقطار، رفض رضوان آقا كلّ الآراء التي قيلت في ذلك الاجتماع ولم يقبلها. وأرسل رجاله إلى القرى والقصبات الواقعة بين المدينة المنورة وجدة، وأمرهم بجمع كلّ دابة مثل البغال والجمال واعطاء أصحابها ضعف الاجرة التي يحصلون عليها، واغرائهم بالحضور مع حيواناتهم إلى مكّة المكرّمة، فلما تمّ له ذلك بدأ بالعمل بهمة عالية وقام بتطهير البيت الحرام من الأحجار والطين خلال سبعة وعشرين يوماً وانتهى من ذلك في (١٩ من ذي القعدة الحرام).

والجدير بالذكر أنّ مادة الطين والحجارة اللتين جاء بهما السيل إلى داخل الحرم الشريف كانا قد اختلطا وتجرّتا تحت شعاع الشمس مكونتين طبقة صلبة في الحرم المذكور، بلغ ارتفاعها حوالي (٧ - ٨) أذرع ممّا تعدّر تكسيرها حتّى بواسطة المعاول الحديدية. فكانوا يصبّون عليها الماء في الليل ليأتوا في اليوم التالي وقد لانت بعض أجزاء تلك الطبقة الجبلية فيعملون على تكسيرها. وكان العمّال يفصلون الرمل عن الحجارة وينقلون كلّ مادة إلى جهة معيّنة ويضعونها على شكل ركام هناك.

وذكر المرحوم سهيلي أفندي في مضبطته، أنّه كانت تُنقل تلك الأحجار والطين والرمل وما إلى ذلك على نحو (٣٠ - ٤٠) ألف مرّة من الحرم إلى خارجه على الدواب. ولما امتلأ مجرى عين زبيدة من كثرة الأحجار والطين ابتلي أهل مكّة بعطش شديد وقلة مياه الشرب، فقام رضوان آقا أيضاً بإصلاح وتعمير بعض أماكن ذلك المجرى الذي تهدّم فانتهى من هذا العمل والخدمة الجليلة في السادس من ذي الحجّة.



### كرامات ومعجزات بيت الله الحرام

لما آلت الكعبة الشريفة، تلك البقعة المقدّسة إلى السقوط، تغيّر طعم ماء زمزم وأصبح مُرّاً لا يُطاق شربُه، فاجتمع العلماء الأعلام ورجال البلد وقرّروا تطهير وتنظيف البئر المذكورة قائلين: إنَّ أهل الإيمان يحتاجون إلى شرب الماء من زمزم ويتحسّرون على ذلك. إلا أنَّ تلك العملية كانت تحتاج إلى مبلغ كبير (٣٠) ألف قرش في ذلك الوقت، وصرف مبلغ كهذا كان بالطبع يتطلّب أمراً من السلطان نفسه، ولم يكن رضوان آقا الجموع بأنّه سيرسل بكتاب إلى والي مصر، قرش، فقد أخبر رضوان آقا الجموع بأنّه سيرسل بكتاب إلى والي مصر، ويطلب منه الإذن بصرف ذلك المبلغ، ولكي لا تبقى الأحوال هكذا ويتوقّف العمل إلى حين وصول الجواب قرّر أن يشغل نفسه بعمل ما غير ذلك. هذا وقد توقّف رضوان آقا عن تطهير بئر زمزم حتّى اشعار آخر. ومن جهة أخرى بدأت مرارة بئر زمزم الشريف تتناقص تدريجياً منذ البدء ببناء الكعبة الشريفة، ولما انتهت عملية البناء، صار ماء بئر زمزم حلواً بالمرّة، سائغاً شرابه وبهذا فهو لم يحتاج إلى تنظيف ولا تطهير.

هذا وكان رضوان آقا قد كتب إلى والي مصر في أوائل ذي القعدة، ذاكرًا كلّ ما يحتاجه من الأدوات والآلات والألواح والأخشاب التي يلزم تحضيرها للبناء، وطلب ارسال تلك المواد في أسرع وقت ممكن. وبمجرّد وصول خطاب رضوان آقا قام والي مصر محمّد باشا بتحضير وتهيئة كلّ تلك المستلزمات على الفور، وأحضر كذلك بعض النجارين والحرفيين وأرسلهم جميعاً نحو الحجاز، فوصلت تلك الأشياء مع أصحابها جدّة في أواخر ذي القعدة وسلّموا مسوّدّة تضمّ تلك الأشياء إلى أحمد قبّاني أفندي كاتب المالية في جدّة، وقام هذا الأخير (وحسب الأمر الذي كان لديه من قبل رضوان آقا) بإرسال تلك الأشياء إلى

مكة المكرمة في قافلتين. وقد وضعت الأشياء التي أرسلت في القافلة الأولى في البيوت التي تعرف بمضارب عبد الرحمن بن عقيق وحُفظت هناك. وأمّا رضوان آقا فكان قد أصلح ورَّمم الطرق المائية التي كانت تمرّ بوادي خليص، والتي كانت قد تعرّضت للخراب من جرّاء السيل، وذلك قبل وصول القافلة، ولهذا فقد انقطعت المياه عن تلك المناطق تماماً. وقد أصلح رضوان آقا المجرى المذكور وعمّره، وبقي أياماً في الوادي المشار إليه وبينَ لعلّي بن شمس الدين مهندس مكة المكرمة كلّ الأماكُن الخربة التي يتوجّب إصلاحها وتعميرها. فجرت المياه في العين المذكورة في التاسع من ربيع الثاني وأقتيدت تلك المياه إلى مكة المشرفة، وعاد بعد ذلك إلى مكة. وكان قد عيّن رجالاً لتحضير الحطب والفحم والجص وكلّ المستلزمات الأخرى التي يحتاجها بناء وتعمير الأماكن الشريفة، وأعطى كلّاً منهم ما يكفيه من الأجر إزاء ذلك، ثمّ جمع الأحجار التي كانت قد سقطت من تلك الأبنية، وتمّ وضعها في أماكنها المناسبة وأصلحت وعمّرت على أكمل وجه وأعطى النجارون والبنّائون الأوامر والتعليقات اللازمة حول ذلك. ولما كان قد شاع بين الأهالي أنّ الأحجار الخاصّة بالأبنية ستوضع في أماكنها المناسبة، تردّدت أقوال بين الأهالي وكلُّ عبّر عن ذلك بما ارتآه، فاعترض بعض العلماء ممّن لم يجيزوا ذلك على هذا العمل وقدّموا احتجاجهم إلى رضوان آقا. وكان من بين العلماء المعترضين، محمّد علي بن علان مُفتي الشافعية، إذ قال: إنّه ما لم يصل نائب أو وكيل معيّن من قبل السلطان لا يمكن الشروع في تلك الأعمال، وعلى الجميع أن ينتظروا أمر السلطان في كلّ الأحوال، وقد كتب العالم المذكور فتوى بذلك مصرّحاً برأيه.

فدعى رضوان آقا فقهاء المذاهب الأربعة للاجتماع في الحرم الشريف، وأخبرهم أنّ البعض قد اعترض على أعمال التعمير في بيت الله الحرام، وطلب



منهم أن يفتوه في أنه: هل يجوز لمن يرسله البلاط العثماني أن يتولى مسؤولية تلك التعميرات أم لا؟

فأجاب العلماء الأعظم من أهل الفتوى وكان من بينهم شيخ الإسلام خالد بن أحمد المالكي، وعبد العزيز الزمزمي (مفتي الشافعية) وأحمد بن محمد آقا شمس الدين (مفتي الحنفية) وعبد الله بن أبي بكر القرشي (مفتي الحنابلة)، بما يلي: «إن هذا العمل فرض كفاي، وكل من أخذ على عاتقه عمل ذلك فله الأجر والثواب». وبعد صدور هذه الفتوى بدأ رضوان آقا العمل طبقاً لتلك الفتوى، وتميماً لإصلاح الأحجار المذكورة وترتيبها. إلا أن الشيخ محمد علي بن علان الذي كان على رأس المعارضين على ذلك كرّر اعتراضه وشجبه لتلك الأعمال، وحشد جمعاً غفيراً من الأهالي وأمرهم بمنع العمال والنحاتين من مواصلة أعمالهم ممّا حدى برضوان آقا إلى استدعاء علماء المذاهب الأربعة ثانية، وشرح لهم المسألة بالتفصيل وطلب منهم أن يفتوه بذلك. فذكر كل العلماء الحاضرين جملة: «يجوز كل فعل ما دعت إليه ضرورة أو حاجة» وافتوا بجواز العمل بالتفصيل، واستطاعوا إقناع المشهود المعارضين، وإفهامهم الأمر على حقيقته، وأنه لا بد من البدء بالعمل قبل وصول الأمر العثماني.

وجدير بالذكر أن المعارضين لم يكونوا يعترضوا على إصلاح الحجارة، أو وضعها في أماكنها المناسبة بل كان اعتراضهم على غير ذلك كما ورد في كتاب قدّمه المهندسون وأبدوا ملاحظاتهم فيه. وإليك بعض الأسباب المجبرة التي استند عليها أولئك المعارضون:

السبب الأول: أن الأحجار الساقطة من الأبنية المباركة لم تكن تصلح للاستعمال أبداً، لأن الكثير منها كان قد تعرّض للكسر، فلا يمكن والحال هذه تعميم بيت الله الحرام بتلك الأحجار، ولذا وجب احضار كمية كافية من

الأحجار من خارج البلاد.

السبب الثاني: مع أنه يمكن بناء حائط يسند الحائط الذي لم يتهدم بعد وإصاقهما ببعضها ببعض، إلا أنه وبمرور الوقت سيتهدم الحائط القديم إضافة إلى وجود جدران قديمة أخرى آتلة للسقوط، والتي يتوجب تهديمها ثم بناؤها من جديد وهو ما تفرضه قواعد الفن المعماري.

### وأما الجواب عن تلك الادعاءات:

الجواب الأول: لا يجوز الإتيان بأحجار من الخارج وإصلاح الأحجار المتكسرة، ويجب استخدام الأحجار الموجودة كما هي، أي أنه يجب ترميم وبناء الحيطان الخاصة بالأبنية المباركة بالأحجار القديمة الأصلية لتلك الأبنية.

الجواب الثاني: أن تهديم الحيطان التي لم تتهدم بعد عملاً سهلاً، لكن الصعوبة تكمن في أن أحجار هذه الحيطان لا يجوز إخراجها عن موضعها بل يجب إبقاؤها وبناء الكعبة الشريفة بها مما يشكل عائقاً في البناء.

ولا يظن أن المعترضين كانوا يطالبون بما قلناه فقط، بل إنهم إضافة إلى ذلك أرادوا أن يتدخل البلاط العثماني في تلك العملية حيث إن واقعة تهدم بيت الله الحرام أمرٌ يتعلّق بالبلاط المذكور، لذا فلا يجوز بدأ العمل بالترميم والبناء، بل والبت فيه قبل صدور أمر عثماني بذلك، وحتى إن كان الأمر يتعلّق بتنظيف الحرم الشريف واكساء الكعبة المشرفة بردائها الخاص. إضافة إلى ذلك فإنهم لم يميزوا تهديم الحائط الواقع بين الركن اليماني والحجر الأسود بأي شكل من الأشكال، بينما كانوا يميزون الجلوس داخل الكعبة، وتدرّيس كتاب البخاري في عقر تلك الدار المقدّسة ويحلّونه على الإطلاق. إلا أن جميع تلك الادعاءات وكما رأينا كانت واهية ولا أساس لها من الصحة، ذلك إن عدم جلب الأحجار من الخارج

لن يؤمن وصول جدران بيت الله الحرام إلى ارتفاعه الأول، وإذا لم يصلح ما بقي من الأحجار الأصلية فإنه وحسب قواعد الفن المعماري لن تستقر في أماكنها المناسبة، وأنّ إلصاق الجدار المائل بآخر جديد لا يجوز أبداً نظراً لعدم امكانية دوامه وبقائه. وأمّا اعتراضهم على تنظيف الحرم الشريف وتطهيره من الأحجار والطين وما إلى ذلك، فإن كان اعتراضهم هذا بسبب خوفهم من دخول الحيوانات والدواب إلى المسجد الحرام وهدمها لقدسيتها الحرم، فإنه كذلك غير صحيح؛ لأنّ تلك الأحجار والطين لا يمكن نقلها خارج الحرم الشريف إلاّ بواسطة تلك الدواب كما فصلناه أعلاه، وأنّ تلك الحيوانات تقوم بهذه العملية في حوالي (٣٠ - ٤٠) ألف مرّة كلّ يوم وهو ما يصعب على الانسان تنفيذه ولو بمصاريف باهظة، وقد تطول مدّة التطهير إلى (٥) أو (٦) سنوات ممّا سيؤدّي إلى حرمان الحجّاج في تلك الفترة من الطواف وأداء مراسم الحج على النحو المطلوب، ولذا لا يمكن حتّى للجاهل قبول ذلك أو تجويزه، وبما أنّه يجوز إحاطة الكعبة المشرفة بالجدران الخشبية، وتنظيف الأماكن المهمة وأداء التعظيحات الواجبة، حسب الفتاوى التي ذكرت في آخر هذه المقالة. وبما أنّ تدريس كتاب البخاري في داخل تلك البقعة المقدّسة غير جائز؛ لذا فإنّ رضوان آقا استند على تلك الفتاوى الصادرة من علماء المذاهب الأربعة وبدأ بالعمل بمقتضى ما حوّل إليه.

وقد أطلع محمّد باشا والي مصر كما ذكرنا الباب العالي في اسطنبول على الواقعة المؤلمة لتهدّم بيت الله الحرام، كما أخبره بذلك الشريف مسعود في كتاب مفضّل، فقد أحدثت تلك الرسالة ضجّة كبيرة عند الباب العالي وأوصل الخبر إلى السلطان نفسه فأصدرت الأوامر إلى السيّد محمّد أفندي أنقروي (نقيب الأشراف) مطالبة إياه بالإشراف على تنفيذ الأعمال المطلوبة للبقعة المقدّسة



وإرجاعها إلى حالتها السابقة، وأصدر أمراً آخر إلى محمد باشا والي مصر لإرسال ما يستطيع إرساله من أموال الجزية المفروضة على الأقباط المصريين لتأمين احتياجات تلك العملية، وكذلك أمر والي مصر بتعيين شخص متدين ليكون أمين الأبنية المباركة وإيفاده إلى هناك لمراقبة سير العمل في تلك الأماكن المقدسة، فأوكل إلى سيد محمد أفندي (المذكور آنفاً) هذا المنصب وأرسله إلى مكة المكرمة وأعلم الشريف مسعود بالأمر السلطاني. فشكّل محمد باشا والي مصر مجلساً لتعيين وانتخاب شخص لمنصب أمانة الأبنية والأماكن المقدسة وذلك حسب الأمر الصادر له من السلطان العثماني، ودعى جميع المسؤولين في الحكومة وأعيان البلاد وخطب فيهم قائلاً: لقد أطلعتُ الباب العالي على تهديم بيت الله الحرام وأرسلتُ كتاباً إلى البلاط السلطاني يضمّ كتاب الشريف مسعود حول ذلك، وأمر جلالة السلطان بتعيين سيد محمد أفندي أنقروي (قاضي المدينة المنورة) للإشراف على التعميرات المطلوبة، وأمر جلالتَه كذلك بتعيين شخص متدين من مصر لأمانة الأبنية المذكورة، وأمر بتأمين مصاريف ذلك من خزينة مصر الشخصية. ويتضمّن الأمر السلطاني أيضاً إرسال خلعة إلى الشريف مسعود وأمر بتسليم البيروق السلطاني إلى من يُعيّن بمنصب الأمانة المذكورة. وتعلمون بأنني قد أوفدت قبل هذا رضوان آقا، وقد أرسل رضوان آقا بدوره كتاباً ذكر فيه كل ما يحتاجه لتلك الأبنية، وقد عُيّن محمد چاوش لمرافقة القافلة التي ستحمل هذه الأشياء إلى الحجاز، فإذا ارتأيتُم أنّ رضوان آقا يليق بهذه المهمة فلنرسل محمد چاوش إلى هناك حاملاً تلك المستلزمات معه، وإلا فاتفقوا على من ترضونه بديلاً لرضوان آقا لإتمام هذه المهمة. وبعد أن تداول المجتمعون وتبادلوا الآراء حول ذلك وتشاوروا فيما بينهم، اتفق الجميع على أنّ رضوان آقا هو الشخص المناسب واللائق لذلك لما عُرف عن تدينه واستقامته وأهليته في



مثل تلك الأمور، وقد تصدّئ من قبل لأعمال من هذه وأبرز فيها قدرته ومعرفته، ولكي لا نضيع وقتاً ثميناً نصرّفه في البحث والمداولة، فإننا لا نجد أنسب وأجدر منه للقيام بذلك.

فأرسلت العطية التي بعث بها السلطان إلى رضوان آقا وباقي الأشياء اللازمة؛ لكي يستطيع المشار إليه إتمام جميع الأعمال الخاصّة بالأبنية المقدّسة الموكلة إليه. فنكون قد أدّينا واجبنا تجاه خزينة الدولة من حيث صرفها لتلك الأموال من جهة، وإلى الأماكن المقدّسة في الكعبة الشريفة من جهة أخرى. وهكذا صادق محمّد باشا والي مصر على مأمورية رضوان آقا، ثمّ كتب رسالة مُفصّلة إلى الشريف مسعود وبعث بها بواسطة مأمور خاص محمّلاً إيّاه الفرقان والخلعة من قبل جناب السلطان إلى الشريف المذكور. وكان سيّد محمّد أفندي (في تلك الفترة في مصر) فأرسل مع الوفد الذاهب إلى مكّة المكرّمة حاملاً معه الآلات والأشياء التي كان رضوان آقا قد طلبها من قبل. فحملت تلك المستلزمات إلى جهة قناة السويس، وشُحنت داخل سفينة القبطان هناك وهو محمّد بيك (قبطان السويس) لتُسلّم بعد ذلك إلى رضوان آقا، وهكذا تحرّكت السفينة متّجهة إلى جدّة.

وصل محمّد بيك إلى ميناء ينبع في اليوم التاسع عشر من شهر ربيع الثاني. فنزل محمد چاوش من على متن السفينة ثمّ امتطى جملاً وتوجّه إلى مكّة المكرّمة قاطعاً الصحراء. فلما وصل بين تجديد مأمورية رضوان آقا قائلاً: مع أنّ سيّد محمد أفندي لا يزال في مصر الآن، إلّا أنّ جميع الأمور الخاصّة بأبنية البيت المعظّم المباركة قد فوّضت إلى باشا والي مصر بصورة تامّة، وقد عمّل اللازم ودوّنت الأوامر السلطانية المطلوبة؛ لكي يتمّ ذلك بالدقّة والعناية المطلوبتين. وقد عينّ محمد باشا رضوان آقا وكيلاً عنه لأداء هذه المهمّة الشريفة نيابة عنه.

هذا وقد وصل سيد محمد أفندي إلى مكة المكرمة بعد فترة وجيزة والتقى رضوان آقا وبجنا مسألة الأبنية المباركة للكعبة الشريفة بالتفصيل. وفي الوقت الذي كان يواصل محمد جياوش رحلته برّاً من ميناء ينبع إلى مكة المكرمة، كان محمد بيك يقطع البحر باتجاه ميناء جدة فوصلها في الحادي والعشرين من ربيع الثاني، وسَلَّم الأشياء التي كانت بعهدته، كالألات والألواح واللوازم الأخرى إلى أحمد قباني أفندي كاتب المالية طبقاً للقائمة المثبتة عنده لتلك المواد. ولما كان أحمد قباني أفندي يعلم أنّ الأبنية الشريفة بحاجة ماسة إلى تلك الألواح والمواد، فقد هبّ قافلة خاصّة في تلك الليلة مباشرة، وبعث بها إلى مكة المكرمة في الحال، فوصلت القافلة في صباح اليوم الثاني إلى البلدة الطيبة (مكة). وما إن وصلت هذه القافلة مكة توجّه رضوان آقا على التوّ وأحاط الكعبة الشريفة بتلك الألواح. ثمّ وصلت باقي المواد التي كانت في جدة بعد ذلك بيوم واحد فوضعت في مخزن خاص وحُفظت هناك.

وهكذا سِتِرَت الكعبة عن أنظار عشّاقها في الثاني والعشرين من ربيع الثاني بواسطة تلك الألواح احتراماً وتعظيماً لها عن رؤيتها بتلك الحالة. ولما كان سيّد محمد أفندي ناظر العمليات حاملاً لأمر السلطان، كتب إلى سيد عبد الكريم أفندي وكان أخاً للشريف مسعود، وإلى جميع الأشراف والأعيان والقاضي وشيخ الإسلام في مكة المكرمة يدعوهم فيها إلى الاجتماع في داخل الحرم الشريف وذلك في اليوم السابع والعشرين من شهر ربيع الثاني وفي ساعة معيّنة. وفعلاً تمّ الاجتماع داخل الحطيم الشريف، وقُرِئ الأمر السلطاني الذي كان يخاطب الشريف (مسعود) شخصياً. ولما كان الشريف مسعود مريضاً راقداً في سريره، لم يستطع الحضور إلى ذلك الاجتماع، فأرسلت الخلعة السلطانية التي بعث بها السلطان إلى دار المشار إليه، ثمّ ألبس رضوان آقا الخلعة التي أرسلت



إليه أمام الحضور، وألبس سيد علي بن إفرح وباقي الخدّمة هناك خلعاً كذلك حسب ما كان متعارفاً عليه في ذلك الوقت، وبدأ الحاضرون بالدعاء لرفعة الإسلام وشموخه. وأُهدِيَ إلى رضوان آقا كذلك البيرق السلطاني نظراً لخدمته الجليلة. هذا ولأنّ رضوان آقا لم يشأ أن تُنَاط إليه أعمال غير تلك الأعمال المقدّسة التي خدم فيها الأماكن الشريفة، فقد طلب أن تُنَاط إليه مأمورية شيخ الحرم (في المدينة المنورة) لأنّه كان مولعاً كما ذكرنا بالأعمال الخاصّة بالأماكن المقدّسة. فقبِلَ طلبه، ووكلت إليه قصبة جدّة المعمورة ومنصب شيخ الحرم لدار الهجرة. ولما أنهى رضوان آقا مأموريّته على أحسن وجه رجع إلى اسطنبول، ثمّ وُكِّلَ إليه منصب بيكلر بيكي كري كذلك لكنّه لم يقبل ذلك المنصب.

وقد ورد في الرسالة التي بعث بها محمد باشا والي مصر إلى الشريف مسعود: أن الوالي يحثّ الشريف مسعود لبذل كلّ الجهود والمساغي من أجل إتمام عملية البناء والتعمير المذكورتين وأن يستعين بمن شاء لإنهاء ذلك. فسُرَّ الشريف مسعود بذلك كثيراً، وبعث يشكر الوالي المصري على ايكال تلك المهمّة إليه، وأهدى خلعاً إلى رضوان آقا والوفد المرافق له. ثمّ انتقل بعد ذلك الشريف مسعود إلى الملكوت الأعلى في السابع والعشرين من ربيع الثاني تاركاً منصبه شاغراً. وقد أدّى رحيل الشريف مسعود إلى إحداث ضجّة بين الأهالي. ممّا حدى رضوان آقا إلى استخدام كلّ طاقاته وملكاته الرفيعة والعمل على نشر الهدوء والأمن في تلك المنطقة، ثمّ أعلن أنّ كلّ من يسعى إلى نشر الفوضى والإخلال بالأمن هو مهدور الدم. وقد قرأ المنادون هذا الاعلان في الأزقة والأسواق والمحلات على الناس. وأمّا الشريف مسعود فبعد تجهيزه وتكفينه والصلاة على جنازته في الحرم الشريف أقيمت له مراسيم التشييع ثمّ دُفن في

مقبرة المعلاة، وقد دعى رضوان آقا جميع الأعيان والأشراف في مكة والقاضي وشيخ الحرم وذوي المقامات والمناصب العليا من الأهالي وغيرهم فحضر الجميع في الحرم الشريف. ثم خاطب رضوان آقا السيد الشريف عبد الله ابن حسن (والذي كان في ذلك الوقت مفخرة آل عبد مناف ومُنتخب السادات والأشراف) بقوله: يا سيّدنا، نعلمكم أنّه بشهادة ومصادقة جميع الحاضرين في هذا الحشد، وكذلك الموجودين في كلّ الأماكن والنواحي، يُناب إليكم المنصب الأميري الجليل والرتبة العال العال للشرف على الأشراف، والذي هو حقكم الصريح والواضح فارجو منكم أن تلبسوا خلعة الإمارة الفاخرة، وأن تبدأوا بضبط وإحكام أمور المملكة. وهكذا أطفئت نار الفتنة والفوضى التي أراد أهل الضلال والفساد تأجيحها.

ومع أنّ سيد عبد الله أفندي كان معارضاً لهذا التكليف الذي وكلّه رضوان آقا إلى الشريف عبد الله بن حسن، إلا أنّ جميع الحاضرين من الأعيان والأشراف والعلماء الأعلام في مكة المكرمة خاطبوا الشريف عبد الله بن حسن قائلين: «إنّ التكليف الذي وكلّ إليكم من قبل رضوان آقا نافع للدين والدولة، ونحن كذلك نطلب منكم قبول هذا المنصب». فلبس الشريف المذكور خلعة خضراء<sup>(١١)</sup>، وشرع بالقيام بمهام عمله في حفظ الأمن ومنع الفوضى.

لقد أنقذ عمل رضوان آقا البلاد من فتنة كبيرة، وطرد الأوهام التي عشعشت في أدمغة الأهالي، فشكر له الخلائق عمله ذاك والخدمة الجليلة التي قدّمها للكعبة المشرفة، فكانت تلك إحدى خدماته الفرعية في الواقع التي برز فيها كما هو ديدنه.

هذا وقد بقيت الأحجار الساقطة من جدران الكعبة الشريفة داخل الحرم المبارك متناثرة هنا وهناك، فاجتمع الأشراف والأعيان في المملكة وخدمته بيت



الله الحرام في يوم الجمعة غرة جمادى الأولى في الحرم الطاهر، وجمعوا الأحجار التي كانت موجودة في الحرم، فوُضِعَ قسم منها قرب الركن العراقي تجاه المقام الحنفي، وأقاموا عليها خيمة تحفظها. ثم جمع الخدّمة ما تبقى من الحجر ووضعوه قرب المدرسة السليمانية، وأحضِرَ الكثير من أساتذة النحت من خارج البلاد. وكان المرحوم الشريف مسعود قد وضع قناديل الذهب والفضة الخاصّة ببيت الله الحرام قرب محلّة باسقلية. وقد أُخْرِجَت تلك القناديل في اليوم المذكور وضُبطت الواحدة تلو الأخرى وطُوبقت مع سجلّ خاص بها ثمّ سُلمت إلى رضوان آقا. فكان من تلك القناديل ثماني عشرة مصنوعة من الذهب وإحدى وثلاثون مصنوعة من الفضة فكان مجموع الكلّ إحدى وخمسين قطعة.

ثمّ اجتمعت الهيئة المذكورة في يوم السبت (الثاني من جمادى الأولى) ووضعت الأحجار التي كانت في أطراف الركن العراقي تجاه المقام الحنفي، ثمّ رُفِعَت أحجار المرمر الخاصّة بالمطاف الشريف ووضعت في مكان ما قرب باب السدّة. هذا وبدأ الحجّارون بتسوية وترتيب الحجارة الساقطة من الكعبة الشريفة، وشرع النجّارون كذلك بقطع الأخشاب والألواح اللازمة.

ثمّ خلعت باب خزينة الشموع (وهي عبارة عن نصف سقاية عباس بن عبد المطلب) في الثالث من جمادى الأولى، وأُخْرِجَ الحزام الذي كان قد أرسله السلطان أحمد خان، وأحضِرَ جمعٌ من الصاغة بحضور قاضي مكّة وشيخ الحرم وسائر الأعيان في البلاد، وفصلوا الذهب والفضة عن الحزام المذكور، فأخرجوا من صفائح الحديد لذلك الحزام عشرة آلاف درهم من الذهب ومئة وأربعة وعشرين درهماً من الفضة. إلا أنّ ذلك لا يشمل الذهب والفضة التي كانت موجودة في الجدار الذي يتوسّط الركن اليماني والحجر الأسود. فلو حُسِبَ الذهب والفضة الموجودة في حزام هذا الطرف كذلك لوجب إضافة ثلث المقدار

المذكور إليها.

وقد أرسل محمد باشا والي مصر قدراً كافياً من الأخشاب والألواح والآلات بالسفينة عن طريق السويس إلى جدة. وقد تعرّضت السفينة التي كانت تحمل تلك المواد إلى عاصفة هوجاء مما أدى في النهاية إلى غرقها في البحر، وقد وصلت أخبار غرقها إلى مكة المكرمة في يوم الجمعة (١٥ جمادى الأولى) مما تسبّب في حزن وكآبة الأهالي هناك.

وفي اليوم الثالث والعشرين من الشهر المذكور، بُدئ بتهديم جدران الكعبة المشرفة بعد أن أحيط البيت الشريف بسور خشبي، وكان الغرض من ذلك هو منع الأهالي من النظر إلى العمّال والمشتغلين في البيت الشريف، وهي الطريقة التي استخدمها عبدالله ابن الزبير قبل ذلك حيث أحاط البيت الشريف بستار مانع عندما أراد تهديم الكعبة.

وبينما كان النجّارون مشغولين بإقامة السور حول الكعبة، كان رضوان آقا والشيخ من جهة ورئيس العمّال من جهة أخرى يتباحثون في اختيار اليوم المناسب لتهديم البقعة المقدّسة. وبعد ساعات من المباحثات قرّر الطرفان أن يكون يوم الأحد يوم تهديم وتخريب البيت العظيم. وفعلاً بُوشر العمل بذلك يوم الأحد الرابع والعشرين من الشهر المذكور بحضور الأشراف الكرام والعلماء الأعلام وسائر الأهالي هناك. فأحيطت جدران الحرم الشريف من الخارج بسور من الألواح الخشبية إلى ارتفاع ستة أذرع، وفتحوا طريقاً يستطيع من خلالها أهل الطواف تقبيل واستلام الحجر الأسود، كما فعل ابن الزبير ذلك من قبل أيضاً. وكان الطائفون يطوفون حول الكعبة خارج السور الثاني المحاط بها. وقد وُضعت سقالة متينة وقوية في أطراف السور الأربعة.

وكان هدف رضوان آقا من بناء تلك السقالة تسهيل ذهاب ومجيء

البنائين، وسهولة تنقل العمال الذين كانوا ينقلون الطين والحجر. وبعد انقضاء ستة أو سبعة أيام على تلك الأعمال، استخرج ما تبقى من الحزام الحديدي الذي كان فوق جدار الحجر الأسود<sup>(١٢)</sup> وذلك في غرة جمادى الآخرة، ثم اجتمع في اليوم الثاني من الشهر المذكور الشريف علي بن بركات وسادة البلدة صباحاً في دائرة الحطيم الشريف، ولاحظوا مع رضوان آقا جدران بيت الله الحرام، التي لم تهدم بعد مع سقفه. وقد حضر هناك أيضاً معماريو الأبنية الشريفة ومهندسو البلاد عموماً. فعاب المهندسون والمعماريون الأماكن المذكورة وفحصوها بدقة وانتظام، فتوصلوا إلى أن الجدران التي لم تهدم وسقف الدار الشريف قد أصابها التهرؤ والفساد فخطبوا الحضور قائلين أن أبنية هذه البقعة الشريفة قد تحركت وتزحزحت عن موضعها الأصلي، وها نحن نُخبركم بأن لا تتهمونا بالتقصير والإهمال وإخفاء الحقيقة عنكم، وقد قلنا ذلك من قبل أمام فقهاء المذاهب الأربعة وقاضي أفندي وجميع الأشراف والأعيان في البلدة، وها نحن نكرر ذلك مرة أخرى أنه لا يجوز تعميم جزء من بيت الله الحرام والاختصار على ذلك؛ لأن جميع أركان وجدران البيت الشريف آتلة للهدم والسقوط في أي وقت؛ لذا فإن تجديد كل أجزاء البيت العظيم واجب وحتمي، وقدّموا أدلتهم لإثبات ادّعاءاتهم أمام جميع المسلمين الحاضرين، وقد وافق الحضور على تلك التصريحات، وذلك لإسكات محمد علي بن علان الذي كان ضمن العلماء الذين اعترضوا من قبل، ذلك أن (ابن علان) لم يُجزّ تهديم جدران البيت ما دامت لم تسقط بعد، واستطاع بهذه الفرية خداع مجموعة من الناس وحرّضهم على منع المهندسين والمشتغلين من تهديم الجدران، التي أصابها السيل وتهرأت بسبب ذلك لمجرد أنها لم تسقط فعلاً. ممّا حدى برضوان آقا إلى التردد في المسألة واستفسر من فقهاء المذاهب الأربعة ممّن ملأت شهرتهم الآفاق، فأجاب أولئك العلماء بفتواهم المشهورة



قائلين: «لا بأس بتجديد البناء ما دامت الضرورة تقتضي ذلك بشهادة أهل الخبرة على أن يصرف لذلك من المال الحلال».

وبالاستناد إلى الورقة المختومة للمهندسين والمعماريين وشهادة أكثر المسلمين، فقد أزيل الستار المكون من الألواح الخشبية، التي كانت موضوعة بدل الجدران المتهدمة، ورُفِعَتِ الأحجار المتبقية بكلِّ احترام وتعظيم، ووضِعَتْ في محل قرب المدرسة الباسطية والذي تمَّ تعيينه من قبل.

وبُدئَ في يوم الأربعاء الرابع من جمادى الآخرة بعملية إنزال السقف الشريف، ولم يفارق رضوان آقا في ذلك اليوم المهندسين والمعماريين، وأنزل كذلك الذي كان فوق السقف المبارك، واللوحة التي كانت مخصّصة لربط الكسوة الشريفة، ووضِعَتْ في خزانة الشموع، وجمَع ما سقط من التراب من السقف الشريف ووضع قرب المطاف.

وفي يوم الجمعة (السادس من جمادى الآخرة) اجتمع الشريف علي ابن بركات والأعيان والعلماء وفقهاء المذاهب الأربعة داخل الحطيم الكريم، وشاهدوا العمارة الجديدة لبيت الله الحرام، وأكّدوا متانة وقوة البناء الجديد. هذا وقد حضر الاجتماع كذلك الشيخ محمد علي بن علّان الذي كان أحد المعترضين من أهل مكة. فقام رضوان آقا وخطب بالجموع قائلاً: إنَّ بن علّان لا يرضى على هدم الجدران التي خرّبها السيل، ويُلقي بعض الأحاديث المحرّضة على العصيان، وإشعال نار الفتنة بهذا الخصوص ممّا تسبّب في إخلال الأمن والفساد بين الناس. فماذا أنتم قائلون؟ فصاح الحضور والفقهاء جميعاً: إنَّ الجدران التي أريتموها إيانا، وحسب قول المهندسين والمعماريين يجب أن تهدم، ويُجدّد أساس بيت الله الحرام حيث وصل الأمر إلى درجة الوجوب.

وأنزلت بقية السقف الشريف في يوم السبت السابع من جمادى الآخرة،



ووضع قسم منها قرب مدرسة السليمانية، بينما وضع القسم الآخر فوق الأحجار المتراكمة في أطراف بيت الله الحرام.

وكان السبب في وضع الألواح في أماكن متفرقة هو عدم اصابتها عندما كانوا يهدمون الجدار الشريف، وسقوط أحجاره عليها وحمايتها من التلف. وفي ظهر ذلك اليوم تم إنزال الجدار الشريف، أي ما تبقى من الجدار من جهة بئر زمزم، ثم في اليوم التالي (٨ جمادى الآخرة) أنزل الجدار الغربي، أي بقية كعبة الله الشريفة، الذي كان مقابل باب إبراهيم، واللوحه التي كانت موضوعة فوق هذا الجدار، ثم هُدم الجدار اليماني أيضاً وهو بقية الجدار المقابل لباب الصفا. ولما انتهت عملية هدم الجدار اليماني في (٩ جمادى الآخرة) بُدئ بتهديم بقية الجدران الأخرى لبيت الله الحرام وذلك يوم (١٠ جمادى الآخرة)، ثم هُدموا العتبة العليا لباب الكعبة الشريفة في يوم الجمعة (١٤ جمادى الآخرة) فجيء بالباب العليا لبيت الله نهراً إلى الموقع الخاص الذي فيه الحجّارون الذين كانوا مشغولين بتنظيف وتسوية الأحجار الشريفة، ثم خلع وقلع الباب الشريف، ثم وُضعت واقفة في الخلوة التي كانت تقع تحت دار المرحوم ميرزا.

بعد ذلك هُدمت أحجار الشاذروان لبيت الله الحرام، والركن اليماني والأحجار الأخرى، التي كانت موضع استلام الطائفين الكرام، ووضع كل منها في أماكن مختلفة. وقد احتوت أحجار الشاذروان على بعض الحلقات الحديدية المكسوة بالذهب، والتي كانت مخصصة لربط الكسوة الشريفة.

وفي يوم الأربعاء (الثامن عشر من جمادى الآخرة) لم يبق حجر في طرف من أطراف جدران الكعبة سوى تلك التي كانت فوق وتحت الحجر الأسود، فأحضرت جميع الآلات والأدوات الخاصة بالحجارين والنجارين ووضعت في خزينة المال. وفي يوم الخميس (١٩ من الشهر المذكور) نُقِلت الأحجار الكبيرة

إلى محل قريب من بيت الله الحرام؛ وذلك للبدء بجفر وتطهير أساس وجدران بيت الله الأربعة، وقد تمّ تعيين ذلك على أساس الأحجار الخضراء اللون الأصلية للبناء الشريف، وأساسه الذي ظهر بعد ذلك وبُديّ بالتجديد عند الجانب الشامي من الكعبة الشريفة فوَضِعَ صَفٌّ من الأحجار، وقد وُضِعَ أساس بيت الله في اليوم الثالث والعشرين من جمادى الآخرة. من الأحجار الأساسية لكعبة الله حتى سقفها حسب الترتيب الذي سار عليه عبدالله بن الزبير. وُضِعَ (٢٥) صَفًّا من الحجر، إلا أن الأحجار التي كانت موجودة على الأحجار خضراء اللون؛ ولأنّها كانت موجودة تحت شاذروان الكعبة لم تُحَسَّب مع تلك الصفوف. وقد عُدَّتْ الأحواض المائلة في يوم (٢٤) جمادى الآخرة، ثمّ نُقِلَتِ الأحجار التي كانت في الخارج إلى المطاف الشريف.

ثمّ جيءَ بأحجار جديدة من جبل شببكة في اليوم الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، ووضعت بالقرب من ضريح العارف بالله الشيخ محمود بن إبراهيم أدهم ونُحِتَتْ هناك، ثمّ حُمِلَتْ إلى الحرم الشريف في المسجد الحرام من قبل الحمالين، ثمّ غُسِلَتْ تلك الأحجار قرب المقام المالكي، وكانت تُنْقَلُ بعد ذلك إلى مقربة من جدران كعبة الله.

وفي اليوم السادس والعشرين من جمادى الآخرة شرع بالبناء على الأحجار، التي كانت قد وُضِعَتْ سابقاً وارتفع البناء من الجهات الأربعة الطائفتين إلى أرضية المطاف، وقد حضر ذلك اليوم كلُّ من شريف مكة وقضاة الحرمين المحترمين وشيخ الحرم وجميع العلماء وفقهاء أهل مكة للتمتع بذلك المشهد العظيم، فكان كلُّ أولئك الرجال الحضور يتشرفون بحمل الأحجار ونقلها اعتقاداً منهم بأنهم بهذه الخدمة الجليلة ينالون منزلة رفيعة. وانشغلوا المدّة، وبعد ذلك جاءوا إلى الحطيم الكريم وجلسوا هناك.



ولما كان رضوان آقا أيضاً معهم، فقد قام بعد مدة وأخرج دفترأ من جيبه وقرأ اسم الشريف عبد الله وقاضي مكة المكرمة المعظمة وشيخ الحرم ونائب ووالي البلدة المباركة وفقهاء المذاهب الأربعة وعشرين شخصاً آخرين كانوا مستخدمين في خدمة البناء، ولكل واحد منهم ألبس خلعة وبعد ذلك ختموا مجلس البناء.

وفي اليوم الذي بُدئ بالعمل في قواعد أساس بيت الله الحرام، قام أحد فضلاء مكة المكرمة وألقى قصيدة ارتجالية (رفع الله قواعد البيت) على المدعوين المشار إليهم كما شُرح. وبعد أن زار المدعوون أساس بيت الله عديم الإندراس، واكتسوا بالخلعة داخل الحطيم الكريم، وجلسوا بجمعية زوار آخرين حول بيت الله وتلوا القرآن، عادوا.

وكان رضوان آقا يجمع الحُفَّاط وقرّاء القرآن كل يوم داخل المقامات الأربعة، ويبدأون بقراءة القرآن الكريم كله، وكان قد عين ثلاثة قرّاء فقهاء يأتون كل يوم، ويقومون بقراءة سورة الفتح في الوقت الذي يبدأ العمّال فيه بالبناء. هذا وقد أضاف رضوان آقا باباً إلى المحيط والمكوّن من الألواح وسلّم، مفتاح تلك الباب إلى شخص عينه هو بنفسه، وكان كلما فتحت تلك الباب في الصباح كان القرّاء الموجودون داخل المقامات الأربعة قد انتهوا من ختم القرآن المجيد، وإذا بُدئ العمل في جدران الكعبة، قام الحُفَّاط الموجودون في المقام الحنفي بتلاوة سورة الفتح المباركة. هذا وقد دامت تلك الأصول والتقاليد حتى الانتهاء من بناء البقعة المشرفة لبيت الله الحرام، إذ كان القرآن يُختم كله في يوم واحد وتقرأ سورة الفتح بعد ذلك. وكانت الأيام (٢٦، ٢٧، ٢٨ من جمادى الآخرة) قد خُصّصت لتحضير الأدوات واللوازم الخاصّة بالأحجار المتعلّقة بالصف الثاني للبناء وترتيبها، ثمّ بُدئ بتنفيذ الأحجار للصف الثاني في (٢٩) من الشهر المذكور، ثمّ

وُضِعَ الحجر المبارك في اليوم الثلاثين من ذلك الشهر في زاوية من الركن اليماني، ثم أُذِيب مقدار كافٍ من الرصاص وُصِبَّ على المكان المتكسّر له من سائر جهاته فالتأم مع بعضه.

وأثناء وضع الحجر المبارك في محله الشريف قام الأمين على مفتاح البيت المبارك بإحضار العطور الخاصّة وعطّر بها الحجر المذكور والأحجار الموجودة عند أطرافه. وبعد أن وضع البنّاؤون الحجر المبارك في محله الشريف وأحكموا عليه من كلّ جهاته بدأوا بتنضيد أحجار الصف الثاني للركن الغربي والجدار الشامي، وانتهوا من إتمام ووضع أحجار الصف الثاني لأركان البيت الحرام الأربعة في اليوم التالي، الذي كان الأوّل من شهر رجب المرجّب.

وشرع في (٢) رجب بتخمير وتصفية الطين وتحضير أحجار الصف الثالث، ثمّ وضعت العتبة الشريفة لباب الكعبة الطاهرة على الأحجار المرصوفة، ثمّ شرع الصاغة الموجودون بوضع إناء النحاس المخصّص للحجر الأسود في مكانه وثبّت بالفضة، وأمّا الحجّارون فقد قاموا بوضع ثلاثة ألواح ضخمة داخل بيت الله الحرام وتركيزها هناك بمعونة الحمالين، وتمّ نقل مصراعي باب الكعبة المطهّرة إلى الباحة المقدّسة لبيت الله الحرام.

هذا وقد انتهت الأعمال الخاصّة بالكعبة الشريفة في أواخر شهر رمضان المبارك من تلك السنة وتمّت بكلّ دقّة وعناية.

وقد كُتِبَ على لوحة علّقت في أعلى الباب الشريف للكعبة الطاهرة فوق اللون اللاجوردي للباب الذهبية ما يلي:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ • فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (١٣)، وكُتِبَتِ الأبيات التالية تحت تينك الآيتين الشريفتين:



## تأريخ اللّوح

اللّوح لما استرم مجدّداً      قد بدّل السلطان أحمد عسجداً  
 قيد الله من حديد ذو جدا      الله أنعم بالمجدد أيّدا  
 ألهمت في تأريخه لما بدا      للّوح والسلطان أحمد جدّدا  
 وبعد أن علّقوا القطعة الشريفة المذكورة، أنزلوا الكسوة العتيقة وعلّقوا ستاراً جديداً كما سنذكر ذلك بعد هذا في محلّه. وكانت العادة والتقاليد بين السلاطين والملوك تقضي بتقسيم الكسوة المباركة القديمة بين خُدّام بيت الله الحرام إلا أن الشريف عبد الله وأمين المفتاح وعموم الخُدّام في بيت الله الحرام وكلّ الذين كان لهم حقّ في تلك الكسوة تنازلوا عن حقّهم إلى رضوان آقا وذلك لما قدّمه من سعي وهمة، وبذله من جهد تجاه البيت العتيق وأهدوا إليه الكسوة وأصروا عليه لقبوها، فقبلها رضوان آقا وقسّم (٤٠) ألف ليرة على خُدّام بيت الله هديّة منه. وأمّا رضوان آقا فقد قدّم بدوره تلك الكسوة الشريفة هديّة إلى السلطان لما امتثل أمامه في بلاطه وشكّر جناب السلطان همة وسعي رضوان آقا، وكان موضع احترامه وتقديره.

وفي اليوم الخامس من شهر شوّال إفتتحوا البيت الشريف فدخل الرجال والنساء وأدّوا واجبات العبودية لله تعالى.

### الهوامش :

- (١) دائرة المعارف التركية العثمانية.
- (٢) عاتق بن غيث البلادي، نشر الرياحين، ج ١، ص ٨٦.
- (٣) ترجمة مرآة الحرمين، مخطوطة، ص ٦٠.
- (٤) طبقاً لما ذكره إبراهيم الكردي المكي، حيث يقول: «كتب أيّوب صبري باشا في الجزء الأخير من كتابه (مرآة الحرمين) ص ١٣٤٣، يقول: انتهيت من تأليف كتاب (مرآة الحرمين) بعون الله الرحمن في يوم ٢٤ ربيع

- الأول المبارك، سنة ١٢٩٩ هـ. ق. ويضيف إبراهيم الكردي قائلاً: ويظهر من ذلك أن المؤلف وبعد انتهائه من تأليف الكتاب سنة ١٢٩٩ هـ بدأ بطبع كتابه المذكور سنة (١٣٠١) وانتهى من إكمال طبعه بعد سنة من ذلك التاريخ. (راجع: التاريخ القويم، ج ٦، ص ٣٣١).
- (٥) فهرست النسخ الخطية للمكتبة الوطنية، ج ٤، ص ٣٢٥.
- (٦) التاريخ القويم ٦: ٣٣٣.
- (٧) وهو ما يعرف اليوم بوزير الثقافة والإرشاد، أو الإعلام.
- (٨) لم يوضح المؤلف المصدر أو المذهب الذي استند عليه في عدم الجواز المذكور.
- (٩) إشارة إلى المباحث السابقة من هذا الكتاب (مرآة الحرمين)، التي سننشرها إن شاء الله.
- (١٠) السيل الذي أصاب مدينة سبأ بأرض اليمن في القرن الثاني قبل الميلاد وفرّق أهل هذه الأرض في البلاد.
- (١١) الخلعة الخضراء: الثوب الذي يرتديه شريف مكة في تلك الفترة.
- (١٢) في النسخة الأصلية: شجر الأسود، وهو اشتباه من المؤلف على ما يظهر.
- (١٣) سورة آل عمران ٩٦-٩٧.